المجلد السادس

من صفحة 353 –375

مراكش بعد أن عقد لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة. وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد أنه حدّث نفسه بالملك، وأن ابن بكيت وابن كلداسن داخلوه في ذلك. وساءل عن ذلك السيد أبا زيد بن السيد أبي عمران خليفته، وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله، فأنفذ ذلك.

ثم ارتحل إلى السوس لتمهيده، وحسم علل ابن يدر فيه. وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم وسار يتقرى المنازل ويستنفر القبائل، ومر بتارودنت فوجدها قُفرا خلاءً إلا قلائل من الدور بخارجها. ونزل على حميدي صهر علي بن يدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن يدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً، وهزم فيها جموعه وداخل حميدي علي بن زكداز في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه، فأعجله الفتح عن ذلك ونجا بدمائه إلى بيته. وطولب بالمال، وبقي معتقلا عند ابن زكداز، وامتنع ابن يدر بحصنه. ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته، فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة . وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنه زاحف إلى فبعث بهديته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن، وخرج بهم من مراكش ابن أبي مديون السكاسني دليلا. وسلك بهم على القفر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن، فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه فألفوه بجهة مليانة، فأقام أبم قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين وعسكر المغرب، ونزل بضواحي مراكش وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس في عساكر الموحدين فاستجره يعقوب إلى وادي أغفو، ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفر عسكره. وانهزم يريد مراكش، والقوم في أتباعه فأُدرك وقُتل. وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش

في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس، وسفوه المعتصم مدة خمسة أيام وخرج في جملتهم، وانقرض أمر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده.

الخبر عن هسكورة:

وأما هسكورة وهم أكثر قبائل المصامدة، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة. وأما سواهم من بطون كنفيسة فأنفقتهم الدولة بما تولوا من مشايعتها وإبرام عقدتها، فهلك رجالاتهم في إنفاقها سبل الأمم قبلهم في دولهم. وأما هسكورة فكان لهم بين الموحدين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبهم إلا أنهم كانوا أهل بدو ولم يخالطوهم في ترفهم ولا أنغمسوا في نعيمهم. وكان جبلهم الذي أوطنوه من حالة دون القنة منها والذروة. واعتصموا منه بالآفاق الفدد واليفاع الأشمّ والطود الشاهق، قد لمس الأفلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه

وتلفع بالسحاب في مروطه، وآوى الرياح العواصف الدجوة وألقى إلى خبر السماء بإذنه، وأظل على البحر الأخضر بشماريخه، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره، وأقام سائر جبال درن في حجره. ولما انقرض أمر الموحدين وتغلب بنو مرين على المصامدة أجمع، وساموهم خطة الخسف في وضع الضرائب، والمغارم عليهم فاستكانوا لعزهم وأعطوهم يد الطواعية، واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم ؛ فلم يغمسوا في خدمتهم يداً ولا أعطوهم مقاداً ولا رفعوا بدعوتهم راية إنما هي منابذة لأمرهم وامتناع عليهم سائر الأيام. فإذا زحفت الحشود وتمرّست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة وأتاوة غير ملتزمة ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته، وربما تخطاهم إلى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هكسورة وكنفيسة، وبالحشد من العرب الموطنين بأرض السوس.

وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الثبانات، وكان رئيسهم في ما ذكرنا- بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف، وحرروا لسان الأعجمين هو عبد الواحد، وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر. وهلك سنة ثمانين وستمائة، وكان منتحلاً للعلم واعية له جماعة لكتبه ودواوينه حافظاً

لفروع الفقه. يقال إن الأحاديث المدونة كانت من محفوظاته، محباً في الفلسفة مطالعاً لكتبها حريصاً على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة، مطلعاً على الشرائع القديمة والكتب المنزلة بكتب

التوراة. ويجالس أحبار اليهود حتى لقد اتهم في عقيدته ورمي بالرغبة عن دينه. ثم ولي من بعده ابنه عبد الله، وكان مقتفياً سنن أبيه في ذلك، وخصوصاً في انتحال السحر والاستشراف إلى صنعة الكيمياء. ولما فرغ السلطان أبو حسن من شأن أخيه عمر، وسكن فتنة المغرب، ودوخ أقطاره وحل معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته لكتائب رجاله دون من يمده من أعراب السوس من ورائه، بما كان من تغلبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وإنزال عماله بالعساكر بينهم، فلاذ منه عبد الله السكسيوي بطاعة معروفة، رهن فيها ابنه، واشترط للسلطان الهدية والضيافة فتقبل منه، ومنحه جانب الرضى.

ولما كانت نكبة السلطان بالقيروان، واضطراب المغرب فتنة وخلا جّو البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأي الملأ من المصامدة على النزول إلى مراكش

وأحكموا عقد الاتفاق بينهم وأجمعوا تخريبها بما كانت داراً للإمرة ولمقام الكتائب المجمرة، وزعم عبد الله السكسيوي هذا بإنفاذ ذلك فيها، وضمن هو تخريب المساجد لتجافيهم عنها فكانت مذكورة على الأيام. ثم انحل عزمهم وافترقت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بني مرين علن السلطان أبي عنّان كما يذكر بعد فانحجر كل منهم بوجاره.

ولما فرغ أبو عنّان من شأن أبيه، واستولى على المغرب الأوسط وغلب عليه بنو عبد الواد. ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الأندلس بالطاعة يروم الإجازة إلى المغرب لطلب حقه، فأركبه السفير إلى مراحل السوس فنزل به، ولحق بعبد الله السكسيوي فأواه وظاهره على أمره. فجرد أبو عنان العزائم إليهم وعقد لوزيره فارس بن ميمون بن وادرار على حربهم. واستخرج جيوش المغرب وأناخ بساحته سنة أربع وخمسين وستمائة واختط بسفح الجبل مدينة لحصاره سماها القاهرة. وأخذت بمخنقه وزاحت بمناكبها أركان معقله حتى لاذت للسلم، واشترط أن ينبذ العهد إلى أبي الفضل المصري عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه، وعقد له

سلماً على عادته وأفرج عنه. وخرج على عبد الله السكسيوي لأيام السلطان أبي سالم إبنه محمد المعروف في لغتهم أيزم ومعناه الأسد، فغلبه على أمره ولحق عبد الله بعامر بن الهنتاتي كبير المصامدة لعهده وعامل السلطان عليهم، فاستجاش به ووعده عامر النصرة وأمهله عاماً ونضه حتى وفد على السلطان، واستوهب في ذلك. ثم أجمع

على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يدا. وزحف عبد الله حتى نزل بالقاهرة، وأخذ بمخنق أبيه وأشياعه. ثم داخله بعض بطانته ودله على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بإبنه أيزم فصاح به عبد الله وقومه. وفر محمد أمامهم فأدرك بتلاسف من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبد الله ملكه، واستقلت قدمه إلى أن مكر به ابن عمه يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر ين عبد الله على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراكش وثأر منه يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عم عبد الله، وكان قتله أيام إمارته الأولى. وأقام مملكاً على سكسيوة إلى سنة خمس وسبعين وستمائة فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله بأخيه عبد الله، واستقل بأمر سكسيوة ومن إليهم. ثم خرج عليهم لأعوام من استقلاله ابن عم له من أهل بيته لم

ينقل لي من تعريفه إلا أن إسمه عبد الرحمن، لأن ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين وستمائة، فأخبرني الثقة بأمره وأنه ظفر بأبي بكر بن عمر وقتله. واستبد بأمر الجبل إلى هذا العهد فيما زعم وهو سنة تسع وسبعين وستمائة. ثم بلغني سنة ثمان وثمانين وستمائة أن عبد الرحمن هذا ويعرف بأبي زيد بن مخلوف بن عمر آجليد قتله يحيى بن عبد الله بن عمر، واستبد بأمر هذا الجبل وهو الآن مالكه، وهو أخو أيزم بن عبد اله. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بقية قبائل المصامدة:

(وأبا بقة قبائل المصامدة) من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاحة ودكالة وغيرهم مفن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم امم لا تنحصر. ودكالة منهم في ساحة الجبل من جانب الجوف مما يلي مراكش إلى البحر من جانب الغرب. وهناك رباط آسفى المعروف ببني ماكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو صنهاجة وتجاورهم من جانب الغرب في بسيط ينعطف ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيط هناك يفضي إلى السوس، يعثره من حاحة هؤلاء خلق أكثرهم في خفر الشعراء

من الشجر المعروف بأرجان، يتحصنون بملتفها وأدواحها ، ويعتصرون الزيت لأدامهم من ثمارها. وهو زيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه العمال إلى دار الملك في هداياهم فيطرفون به.

وبأخر مواطنهم مما يلي أرض السوس، وفي القبلة عن جبل درن بلدة دنست وبها معظم هذه الشعراء ينزلها رؤساؤهم، ورياستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة، وكان شيخهم

لعهد السلطان أبي عنان إبراهيم بن حسين بن حماد بن حسين، وبعده ابنه محمد بن إبراهيم بن حسين، وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد. واستمرت رياسته عليهم إلى أعوام ست وسبعين وسبعمائة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطوسن على مراكش، فقتله شيخ بني مرين ير بن عمر الورتاجي من بني ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رياستهم من بعده وهم دكالة جميعاً أهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه، ولله الخلق والأمر وهو خير الوارثين.

كان الواثق جهز لحرب أحد أمراء المصامدة ، فكان وزيره داخله في ذلك السيد أبا

زيد بن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع، وأمره بالقبض عليه وقتله فأنفذ ذلك. ثم ارتحل إلى السوس لتمهيده، وحسم هلال بن يدر فيه علله، وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم، وسار يتعدى المنازل ويستنفر القبائل وهو بتارودنت فوجدها قفراً خلاء إلا قليلاً من الدور بخارجها. ونزل على حميدين صهر علي بن يدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن يدر وملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياماً وهزم فيها جموعه.

وداخل محمد بن علي بن زكدان في إفراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها

إليه، فأعجله الفتح من ذلك ونجا بدمائه إلى بيته، وطولب بالمال وبقي معتقلاً عند ابن زكدان، وامتنع علي بن يدر بحصنه، ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وستمائة، وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى إليه فبعث بمرتبه إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطران وابن أبي عثمان رسول يغمراسن. خرج إليهم من مراكش ابن أبي مديون الونكاسي دليلاً وسلك بهم على الثغر إلى سجلماسة، وبها يحيى بن يغمراسن فبعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه، وألفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب

بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراكش بجيوش بني مرين ونزل بضواحي مراكش وأطاعه على النواحي ونهض إليه أبو دبوس بعساكر الموحدين فاستجره يعقوب إلى وادي أعفر. ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفر عساكره وانهزم يريد مراكش والقوم في أتباعه فأدرك وقتل. وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرّم فاتح سنة ثمان وستين وستمائة وفر بقية المشيخة من الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا

بايعوا عبد الحق أحد بني أبي دبوّس وسموه المعتصم مدّة من خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض مر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده .

الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريف أحوالهم لهذا العهد:

لما دعا المهدي إلى أمره في قومه من المصامدة بجبال درن، وكان أصل دعوته نفي التجسيم الذي إليه مذهب أهل المغرب باعتمادهم ترك التآويل في المتشابه من الشريعة، وصرح بتكفير من أبى ذلك أخذا بمذهب التكفير بالمثال. فسمى لذلك دعوته دعوة التوحيد، وأتباعه بالموحدين، نعياً على الملثمين مثال مذاهبهم إلى اعتقاد الجسمية، وخص بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش، فكان إنما اختص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح. وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثماني قبائل، سبعة من المصامدة: هرغة وهم قبيلة الإمام المهدي، وهنتاتة، وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الإجارة والحماية، وكنفيسة، وهزرجة وكدميوة ووريكة.

وثمانية قبائل الموحدين: كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته، دخلوا في دعوته قبل الفتح فكانت لهم المزية بسابقة عبد المؤمن وسابقتهم فاختص هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة وإسمها. وقاموا بالأمر وحملوا سريره وأنفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الأقطار على نسبة قربهم من صاحب الأمر وبعدهم. وبقي من بقي منهم بجبالهم ومعاقلهم بقية حتوف. وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذيال الغلب والقهر حتى ألقوهم بالأتاوات وانتظموا في عداد الغارمين من الرعايا، وصاروا يولون عليهم من زناتة ومن رجالاتهم أخرى، وفي ذلك عبرة وذكرى لأولي الألباب والملك لله يورثه من يشاء.

هرغة

فأما هرغة وهم قبيل الإمام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه، لما كانوا أشد القوم بلاء في القيام بالدعوة، وأصلاهم لنارها بقرابتهم من صاحبها،

وتعصبهم على أمره. ولم يبق منهم إلا أخلاط وأوشاب أمرهم إلى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً.

تينملل

وكذا تينملل إخوانهم في التعصب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تهيز إليهم وبنى داره ومسجده بينهم، فكان يعطيهم من الفيء بمقدار حظهم من الاستيلاء، وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم، وملك غيرهم من المصامدة أمرهم عليهم، وقبر الإمام بينهم لهذا العهد على حاله من التجلة والتعظيم وقراءة القرآن عليه أحزاباً بالغدو والعشي، وتعاهده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الإذن، واستشعار الأّبهة وتقديم الصدقات بين أيدي زيارته على الرسم المعروف في احتفال الدولة، وهم مصممون مع ذلك وكافة المصامدة أن الأمر سيعود، وإن الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب وتملأ الأرض كما وعدهم المهدي لا يشكون في ذلك ولا يستريبون فيه.

هنتاتة

وأما هنتاتة وهم تلو القبيلتين في الأمر، وكل من بعدهم فإنما جاء على أثرهم وتبعاً لهم، بما كانوا عليه من الكثرة والبأس، ومكان شيخهم أبي حفص عمر بن يحيى من صحابة الإمام والاعتزاز على المصامدة. وكانت لهم بأفريقية دولة كما نذكره، فأنفقت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار بهم، وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال درن، وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسط من الاستبداد والخضوع. ولهم في قومهم مكان بامتناع معقلهم وإطلاله على مراكش. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة، وقطعوا عنهم أسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس انحياش إليهم بما

كانوا مسخوطين في آخر دولة بني عبد المؤمن، فاختصوهم بالأثرة والمخالصة. وكان علي بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق خالصة له من بين قومه. وهلك سنة سبع وسبعين وستمائة على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس فيه، وأنفذه عن السلطان لابنه أمير مراكش بقتل رهط من مشيخة المصامدة في اعتقاله، كان منهم: علي بن محمد فقام السلطان لها في ركائبه، وندم على ما فرط من أمره في إفلات ابن الملياني على ما نذكره من أمر هذه الواقعة في أخبار السلطان يوسف بن يعقوب. ولما ولي السلطان أبو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من أثر الملك والسلطان، وانقادوا للدولة رجع بنو مرين إلى التولية عليهم من رجالاتهم، وتداولوا بينهم في ذلك واختار السلطان بعد صدر من دولته موسى بن علي بن محمد للولاية على المصامدة هـجبايتهم، فعقد له وأنزله مراكشن فاضطلع بهذه الولاية سنين رسخت فيها قدمه، وأورثها أهل بيته، وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموا به في الولاية، وترشحوا للوزارة.

ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لأخيه محمد، وأجراه على سننه إلى أن هلك فاستعمل السلطان بنيه في وجوه خدمته، وعقد لعامر منهم على قومه. ولما ارتحل السلطان أبو الحسن إلى أفريقية صحبة عامر فيمن صحبه من أمراء المصامدة وكافة الوجوه، حتى إذا كانت نكبة القيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدين من تنويه الخطة وسعة الرزق. واستنام إليه فيها فكفاه همّها. ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه وخطاياه السفن لنظر عامر هذا، حتى إذا غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بما أصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها إلى المريّة من ثغور الأندلس، فأنزل بها كرائم السلطان لنظره وبعث عنهن ابنه أبو عنان المستبد على أبيه بملك المغرب، فامتنع من إسلامهن إليه وفاء بأمانته في خدمتهم.

وخلص السلطان أبو الحسن بعد النكبة البحرية إلى الجزائر سنة خمسين وسبعمائة، وزحف إلى بني عبد الواد ففلّوه ونهض إلى المغرب،

وسلك إليه القفر حتى نزل بسجلماسة فقصده أبو عنان فخرج عنها إلى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب جشم، فاحتشد، ولقي ابنه أبا عنان بجهات ام ربيع فكانت الدبرة عليه، ونجا إلى

جبل هنتاتة. وكان عبد العزيز بن محمد شيخاً عليهم منذ مغيب عامر، وكان في جملته، وخلص معه فأنزله عبد العزيز بداره، وتدامر هو وقومه على إجارته والموت دونه فاعتصم بمعقلهم. وجاء السلطان أبو عنان في كافة بني مرين إلى مراكش فخيم بظاهرها واحتشد لحصارهم أشهراً حتى هلك السلطان أبو الحسن كما نذكره بعد، فحملوه على الأعواد ونزلوا على حكم أبي عنان فكرمهم ورعى لهم وسيلة هذا الوفاء، وعقد لعبد العزيز على إمارته، واستقدم عامراً كبيره من مكانه بالمرية، فقدم بمن لأمانته من حظايا السلطان وحرمه فلقاه السلطان مبرة وتكريماً ، وأناله من اعتنائه حظاً.

وتخفى له أخوه عبد العزيز عن الأمر فأقره نائبا. ثم عقد السلطان لعامر سنة أربع وخمسين وسبعمائة على سائر المصامدة، واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطلعاً، وكفاه مهم الأعمال المراكشية حتى عرف عناءه فيها وشكر له كفايته. وهلك السلطان أبو عنان، واستبد على ابنه السعيد وزيره الحسن بن عمر المودودي وكان ينفس عليه ما كان له من الترشيح للرتبة، وبينهما في ذلك شحناء، فخشي بادرته وخرج من مراكش إلى معقله في جبل هنتاتة، وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمعتمد. وكان أبوه عقد له يافعاً قبيل وفاته على مراكش لنظر عامر فخلص به إلى الجبل، حش إذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الأمر، واستقل بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة. وفد عليه عامر بن محمد مع رسله إليه، وأوفد ابن أخيه محمد المعتمد فتقيل السلطان وفادته، وشكر وفاءه، وأقام ببابه مدة. ثم عقد له على قومه، ثم استنفره معه إلى تلمسان، ولم يزل مقيماً ببابه إلى قبيل وفاته فأنفذه لمكان إمارته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبد الله بن علي على ما نذكره، وكانت بينه وبين عامر بباب السلطان صداقة وملاطفة وصل يده بيده، وأكد العهد معه على سد تلك الفرجة، وحوّل عليه في حوط البلاد المراكشية وأن لا يؤتى من

قبله، وكان زعيماً بذلك، وعقد له على الأعمال المراكشية وما إليها إلى وادي أم ربيع. وفوض إليه أمر تلك الناحية، واقتسما المغرب شق الأبلمة وخلص إليه الأعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل بن السلطان أبي سالم، وعبد

المؤمن بن السلطان أبي علي، فاعتقل عبد المؤمن وأمكن أبا الفضل من إمارته على ما نذكر بعد. وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض إليه من فاس بجموع بني مرين وكافة العسكر، واعتصم بجبلة وقومه واستبد على الأميرين عنده. وحل عبد المؤمن من معتقله يجاجىء به بني مرين لما كانوا يؤملون من ولايته واستبداده لما أسفهم من حجر الوزراء لملوكهم. فلما رأوا استبداد عامل عليه أعرضوا عنه، وانعقد السلم بينه وبين عمر بن عبد الله على ما كان عليه من مقاسمته إياه في أعمال المغرب، ورجع. واستقل عامر بناحية مراكش وأعمالها، حتى إذا هلك عمر بن عبد الله بيد عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما نذكره، حدثت أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم نفسه بالهتك بعامر بن محمد، كما فتك عمه بعمر بن عبد الله. ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد إلى داره بالجبل، ففتك أبو الفضل بعبد المؤمن ابن عمه، كان معتقلاً بمراكش. واستحكمت لذلك السفرة بينه وبين عامر بن محمد. وبعث إلى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين وسبعمائة.

وفر أبو الفضل فلحق بتادلّا، وتقبض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما نذكر في أخباره. وطلب عامراً في الوفادة فخشيه على نفسه واعتصم بمعقله فرجع إلى حضرته، واستجمع عزائمه. وعقد على مراكش وأعمالها لعلي بن أخانا من صنائع دولتهم، وأوعز إليه بمنازلة عامر فدافعه عامر وقومه عن معتصمه ، وأوقع به وتقبض على طائفة من بني مرين وصنائع السلطان في المعركة أودعهم سجنه، فحرك بها عزائم السلطان، ونهض إليه في قومه من بني مرين وعساكر المغرب، وأحاط به ونازله حولاً كريتاً.

ثم تغلب عليه سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، وانفضت جموعه. وتقبض عليه عند اقتحام فسيق أسيراً إلى السلطان فقئده، وقفل به إلى الحضرة. ولفا قضى نسك الفطر من سنته أحضره ووبخه. ثم أمر به فتل إلى مصرعه، وامتحن جلداً بالسياط وضرباً بالمقارع حتى فاض عفا الله عنه. وعقد السلطان على قومه لفارس ابن أخيه العزيز كان نزع إليه

بين يدي مهلك عمه وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقته إلى الطاعة قبيل
اقتحام الجبل عليهم، أشار

عليه بذلك أبوه نظراً له فظفر من السلامة بحظ، وأصاره السلطان في جملته.

ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز، واضطرم المغرب فتنة بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين سبعمائة. وصارت أعمال مراكش في إيالة السلطان عبد الرحمن بن علي الملقب بأبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي. ونزع إليه أبو يحيى بن عامر فعقد له على قومه. ثم اتّهمه باحتجاز الأموال منذ عهد أبيه، وشره إلى استصفائه، ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائل المصامدة جيرانهم بأطراف السوس، ونزل عليهم. وكان مهلكه فيهم أعوام ثمانين وسبعمائة والله وارث الأرض ومن عليها.

كدميوة

وأما كدميوة وكانوا تبعاً لهنتاتة وتينملل في الأمر، وجبلهم لصق جبل هنتاتة. وكان رؤساؤهم لعهد الموحدين بنو سعد الله. ولما تغلب بنو مرين على المصامدة، ووضعوا عليهم الضرائب، وامتنع يحيى بن سعد الله بعض الشيء بحصن تافرجا وتيسخت من جبلهم، وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بني مرين، واختلفت إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد الله سنة أربع وتسعين وستمائة، وعساكر يوسف بن يعقوب مجهزة على حصاره، فهدموا حصونه، وأذلوا من قومه. واستخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبد الكريم بن عيسى منذ عهد أبيه فعقد له عليهم. ثم تقبض على أمراء المصامدة، واعتقله فيمن اعتقل منهم، حتى إذا فعل ابن الملياني فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بتلبيس الكتاب على لسان السلطان لابنه على أمير مراكش، فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم، وقتل معه بنوه عيسى وعلي ومنصور، وابن أخيه عبد العزيز بن محمد. وامتعض السلطان لذلك وأفلت ابن الملياني من عسكره لحصار تلمسان فدخلها.

ثم قام بأمر كدميوة عبد الحق بن.. من بيت بني سعد الله أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان. وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرها لصق العمالة، شأن المجاورين من القبائل، وقديم العداوة بين السلف. فلما استفحل أمر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة، نبذ إلى عبد الحق العهد ونحلة الخلاف والمداخلة للسكسيوي شيخ الفتنة المستعصي منذ أول الدولة، فصمد إليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة في قومه ومشايخ السلطان التي كانت بمراكش لنظره، فافتتح عليه معقله عنوة وقتله. واستولى على كدميوة ولحق بنو سعد الله بفاس، وأقاموا بها، حتى إذا خاض السلطان أبو سالم البحر إلى ملكه بعد أخيه أبي عنان ونزل بغمارة، نزع إليه يوسف بن سعد الله واعتقد منه ذمة بسابقيته تلك. فلما استولى على البلد الجديد واستقل بسلطانه،

عقد له على قومه رعياً لوسيلته فأقام في ولايته مدة السلطان أبي سالم. وكان عامل مراكش محمد بن أبي العلى من حاشية السلطان. وبيوت الولاة بالمغرب معولاً فيها على مظاهرته.

ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد عمر بن عبد الله على الملوك بعده، بادر لحين ثورته بالعقد لعامر على أعمال مراكش ليستظهر به، وطير إليه الكتاب بذلك فنزل إلى مراكش وقتل بها يوسف بن سعد الله، ونكب بأبي العلى ثم قتله وألحقه بأبي عبد الحق. وذهبت الرئاسة من كدميوة برهة من الدهر، ثم رجعت إليهم في بني سعد الله، والله قادر على ما يشاء وبيده تصاريف الأمور لا رب سواه ،ولا معبود إلا إيّاه.

وريكة

وأما وريكة فهم مجاورون لهنتاتة، وبينهم فتنة قديمة وحرب متصلة ودماء مطلولة، كانت بينهم سجالاً وهلك فيها من الفريقين أمم إلى أن غلبهم هنتاتة باعتزازهم هم بالولاية،

فخضدوا منهم الشوكة وأصاروهم في الجملة والله وارث الأرض ومن عليها والله تعالى أعلم بغيبه وهو على كل شيء قدير.

بنو يدر أمراء السوس

الخبر عن بني يذر أمراء السوس من الموحدين بعد انقراض

بني عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم

كان أبو محمد بن يونس من علية وزراء الموحدين من هنتاتة، وكان المرتضى قد استوزره، ثم سخطه وعزله سنة خمسين وستمائة وألزمه داره بتامصلحت، وفر عنه قومه وحاشيته وقرابته. وكان من أهل قرابته علي بن يدر من بني باداس ففر إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة إحدى وخمسين وستمائة ، ونزل بحصن تانصاحت سفح الجبل حيث يدفع وادي السوس من درن، وشيّده وحصّنه، وتغلّب على حصن تيسخت من أيدي صنهاجة وشيده، وأنزل فيه ابن عمه بو حمدين. ثم تغلب على بسيط السوس وجأجأ بني حسان من أعراب المعقل من مواطنهم من نواحي ملوية إلى بلاد الريف، فارتحلوا إليه وعاث بهم في نواحي السوس، وأطاع له كثير من قبائله فاستوفى جبايتهم. وأجلب على عامل الموحدين بتارودنت، وضيق عليه المسالك، وتفاقم أمره. واتهم الوزير أبو محمد بن يونس بمداخلته، وعثر على كتابه إلى علي بن يدر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة إثنتين وخمسين وستمائة. وأغزى أبا محمد بن أصناك إلى بلاد السوس في عسكر الموحدين والجند، وعقد له عليها فنزل تاودنت وتحصّن علي بن يدر تيونودين، وزحف إليه ابن أصناك في عسكره فهزمه ابن يدر وقتل كثيراً منهم، ورجع إلى مراكش مقلولاً وأقام علي بن يدر على حاله من الخلاق، وأغزاه المرتضى محمد بن علي أزلماط في عسكر من الموحدين سنة ستين وستمائة فهزمهم وقتل ابن زلماط، فعقد المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبي زيد بن بكيت فزحف إليه، ودارت الحرب بينهما ملياً، وانقلب من غير ظفر. واستفحل أمر ابن يدر ببلاد السوس واستخدم الأعراب من بني الشبانات وذوي حسان. وأطاعته القبائل من كزولة ولمطة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة. وجبى الأموال واستخدام الرجال يقال- كان جنده ألف فارس وكان بينه وبين كزولة فتن

وحروب يستظهر في أكثرها بذوي حسّان.

ولما استولى أبو دبوس على مراكش سنة خمس وستين وستمائة، وفرغ من تمهيد ملكه بها اعتزم على الحركة إلى السوس ورحل من مراكش، ، وقدم بين يديه يحيى بن وانودين لاحتشاد القبائل، ومر بالجبل ثم أسهل من تامسكروط إلى بسيط السوس، ونزق على بنى باداسن قبيلة ابن يدر على فرسخين من تيونودين. وقصد تيزخت ومر بتارودنت وعاين أثر الخراب الذي بها من عيث ابن يدر ولما بلغ حصن تيزخت خيم بساحته وحشر أمماً من القبائل لحصاره، وكان به حمدين ابن عم علي بن يدر فحاصره أياماً. ولما اشتد عليه الحصار داخل علي بن زكداز من مشيخة بني مرين كان في جملة أبي دبوّس فداخله في الطاعة، وتقبل السلطان طاعته على النزول عن حصنه.

ثم أعجلته الحرب واقتحم عليهم الجبل ولجوا إلى الحصن، وفر حمدين إلى بيت علي بن زكداز فأمره السلطان باعتقاله. واستولى السلطان على الحصن وأنزل به بعض السادات لولايته. وارتحل أبو دبوس إلى محاصرة علي بن يدر فحاصره أياماً، ونصب عليه المجانيق. ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة فتقبل وأقلع السلطان عن حصاره وقفل إلى حضرته. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد علي بن يدر بملك السوس، واستولى على تارودنت وإيفري وسائر أمصاره

وقواعده ومعاقله وأرهف حده للأعراب. فزحفوا إليه، وكانت عليه الدبرة وقتل سنة ثمان وستين وستمائة، وقام بأمره علي ابن أخيه عبد الرحمن بن الحسن مدة. ثم هلك وقام بأمرهم أخوه علي بن الحسن بن يدر. ولما صار أبو علي ابن السلطان أبي سعيد إلى ملك سجلماسة بصلح عقده مع أبيه كما نذكر في أخبارهم، فنزلها وشيد ملكه بها، واستخدم كافة عرب المعقل فغزاه في ملك السوس وأطمعوه في أموال ابن يدر فغزاه من سجلماسة. وفر ابن يدر أمامه إلى جبال نكيسة. واستولى السلطان أبو

علي على حصنه نانصاصت وسائر أمصار السوس، واستصفى ذخيرته وأمواله، ورجع إلى سجلماسة.

ثم استولى السلطان أبو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدر. ولحق به

عبد الرحمن بن علي بن الحسن، وصار فى جملته. وأنزل السلطان بأرض السوس مسعود بن إبراهيم بن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه، وعقد له على تلك العمالة إلى أن هلك. وعقد لأخيه حسّون من بعده إلى أن كانت نكبة القيروان. وهلك حسّون وانفض العسكر من هنالك، وتغلب عليه العرب من بني حسان والشبانات، ووضعوا على قبائله الأتاوات والضرائب. ولما استبد أبو عنان بملك المغرب من بعد أبيه أغزى عساكره السوس لنظر وزيره فارس بن ودرار سنة ست وخمسين وستمائة فملكه، واستخدم القبائل والعرب من أهله، ورتّب المسالح بأمصاره وقفل إلى مكان وزارته فانفضّت المسالح ولحقت به.

وبقي عمل السوس ضاحياً من ظلّ الملك لهذا العهد، وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتصل من لدن البحر المحيط إلى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلة إلى الإسكندرية. وهذا الوطن، قبلة جبال درن ذو عمائر وقرى ومزارع وفدن وأمصار وجبال وحصون، يحدّق وادي السوس ينصب من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسيكسيوة، ويدفع إلى بسيطه، ثم يمرّ مغرباً إلى أن ينصب في البحر المحيط والعمائر متصلة حفافي هذا الوادي ذات الفدن والمزارع وأهلها يتخذون فيها قصب السكر. وعند مصب هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت. وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادي ماسة مرحلتان إلى ناحية الجنوب على ساحل البحر، وهنالك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الأولياء وعبادتهم. وتزعم العامة أنّ خروج الفاطمي منه.

ومنه أيضاً إلى زوايا أولاد بنو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر، وبعدها على مراحل مصب الساقية الحمراء وهي منتهى مجالات المعقل في مشايتهم. وفي رأس وادي السوس جبل زكندر قبلة جبل الكلاوي. وفي قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهي إلى جبال درعة ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حميدي ويصب من جبال نكيسة وادي نول ويمرّ مغرباً إلى أن يصب في البحر. وعلى هذا

الوادي بلد تاكاوصت محطّ الرقاق والبضائع بالقبلة، وبها سوق في يوم واحد من السنة يقصده التجر من الآفاق، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان. وبلد إيفري بسفح جبل نكيسة بينها وبين تاكاوصت مرحلتان، وأرض السوس مجالات لكزولة ولمطة. فلمطة منهم مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفر. ولما تغلب المعقل على بسائطه اقتسموها مواطن، فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن. وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسان. والأمر على ذلك لهذا العهد وبيد الله تصاريف الأمور،لا رب سواه، ولا معبود إلاّ إيّاه

دولة بني أبي حفص

الخبر عن دولة بني أبي حفص ملوك أفريقية من الموحدين

ومبد أ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد قدمنا أنّ قبائل المصامدة بجبل درن وما حوله كثير مثل: هنتاتة وتينملل وهرغة وكنفيسة وسكسيوة وكدميوة وهزرجة ووريكة وهزميرة وركراكة وحاحة وبني ماغوس وكلاوة، وغيرهم ممن لا يحصى. وكان منهم قبل الإسلام وبعده رؤساء وملوك. وهنتاتة هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدّها قوةً، وهم السابقون للقيام بدعوة الإمام المهديّ والممّهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده، كما ذكرناه في أخباره. وإسم هنتات جدهم بلسان المصامدة بنتي، وكان كبيرهم لعهد الإمام المهديّ الشيخ أبو حفص عمر، ونقل البيذق أنّ إسمه بلسانهم فاصكات.

وهنتاتة لهذا العهد يقولون أنه إسم جدّهم وكان عظيماً فيهم متبوع غير مدافع، وهو أوّل من بايع للإمام المهدي من قومه، فجاء يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت

وابن يغمور وغيرهم منهم على أثره. واختصّ بصحابة المهديّ فانتظم في العشرة السابقين إلى دعوته. وكان تلو عبد المؤمن فيهم، ولم يكن مزية عبد المؤمن عليه إلا من حيث صحابة المهدي.

وأمّا في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع، وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ كما كان المهديّ يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بالخليفة. سمات لهؤلاء الثلاثة من بين أهل الدعوة تدل على اشتراكهم في الجلالة. وأما نسبه فهو عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن إليسع بن إلياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن نحية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب، هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين. ويظهر منه أنّ هذا النسب القُرشيّ وقع في المصامدة والتحم به، واشتملت عليه عصبيّته شأن الأنساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم كما قلناه أول الكتاب.

ولما هلك الإمام وعهد بأمره إلى عبد المؤمن، وكان بعيداً عن عصبية المصامدة، إلا ما كان له من أثرة المهد في واختصاصه فكتم موت المهديّ وعهد عبد المؤمن ابتلاء لطاعة المصامدة. وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين، ثم قال له أبو حفص نقدّمك كما كان الإمام يقدّمك فاعلم أنّ أمره منعقد. ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه إثنان. وكان الحل والعقد في المهفات اليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف، واستكفوا به نائب الدعوة فكفاهم همّها. وكان عبد المؤمن يقدّمه في المواقف فيجلي فيهم. وبعثه على مقدمته حين زحف إلى المغرب الأوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وزناتة كلّهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحدين مثل: بني ومانوا وبني عبد الواد وبني ورسيغان وبني توجين وغيرهم، فحمل زناتة على الدعوة بعد أن أثخن فيهم. ولأول دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الثائر بماسة، وانصرفت إليه وجوه الغوغاء وانتشرت ضلالته في النواحي وتفاقم أمره، فدفع لحربه الشيخ أبا حفص فحسم داءه ومحا أثر غوايته.

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية حركته الأولى لم يقدم شيئاً على استشارة أبي حفص. ولما رجع منها وعهد إلى ابنه محمد خالفه الموحدون، ونكروا ولابته ابنه فاستدعى أبا حفص من مكانه بالأندلس، وحمل الموحدين على البيعة له.

وأشار بقتل يصلاتي الهرغي رأس المخالفين في شأنه فقتله، وتم أمر العهد لابنه محمد.

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى أفريقية سنة أربع وخمسين وخمسمائة حركته الثانية لفتح المهدية استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب، وينقل من وصاة عبد المؤمن لبنيه أنه لم يبق من أصحاب الإمام إلا عمر بن يحيى ويوسف بن سليمان. فأما عمر فإنه من أوليائكم، وأما يوسف فجهزه بعسكرة إلى الأندلس تستريح منه. وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة. وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وتربص به ريب المنون، واخل أفريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب، وأذخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تخلف الشيخ أبو حفص عن بيعته، ووجم الموحدون لتخففه حتى استنبل غرضه في حكم أمضاه بمقعد سلطانه، وأعجب بفضله فأعطاه صفقة يمينه، وأعلن بالرضى بخلافته، فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر، وتسمى لها بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن، وتحركت الفتنة بجبال غمارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن منغفاد سنة إثنتين وستين وخمسمائة، عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك. ثم خرج بنفسه فأثخن فيهم، وكمل الفتح كما ذكرناه. ولما بلغه سنة أربع وستين وخمسمائة تكالب الطاغية على الأندلس وغدره بمدينة بطليوس، واعتزم على الإجازة لحمايتها قدم عساكر الموحدين إليها لنظر الشيخ أبي حفص، ونزل قرطبة، وأمر من كان بالأندلس من السادة أن يرجعوا إلى رأيه، فاستنقذ بطليوس من هوة الحصار، وكانت له في الجهاد هنالك مقامات مذكورة.

ولما انصرف من قرطبة إلى الحضرة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا ودفن بها، وكان أبناؤه من بعده يتناولون الإمارة بالأندلس والمغرب وأفريقية مع السادة من بني عبد المؤمن، فولى المنصور ابنه أبا سعيد على أفريقية لأول ولايته، وكان من خبرة مع عبد

الكريم المنتزي بالمهدية ما ذكرناه. واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد، وكان في مقدمته يوم الأركة سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فجلى عن المسلمين، وكان له في ذلك الموقف من الصبر والثبات ما طار له به ذكر. واستشهد في ذلك الموقف وعرف أعقابه ببني الشهيد آخر الدهر، وهم لهذا العهد بتونس.

ولما نهض الناصر إلى أفريقية سنة إحدى وستمائة، لما بلغه من تغلب ابن غانيةعلى

تونس فاسترجعها، ثم نازل المهديّة فتعاوت عليه ذئات الأغراب. وجمعهم ابن غانية ونزل قابس، فسرح الناصر إليهم أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحدين، فأوقع بابن غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة إثنتين وستمائة، وقتل جبارة أخو ابن عانية، وأثخن فيهم قتلاً وسبياً، واستنقذ منهم السيد أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالي كان بتونس، وأسره ابن غانية، ورجع إلى الناصر بمكانه من حصار المهدية، فكانت سبباً في فتحها. وكان ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بأفريقية حسبما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن إمارة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بأفريقية وهي أولية أمرهم بها:

لما تكالب ابن غانية وأتباعه على أفريقية واستولى على أمصارها، وحاصر تونس وملكها، وأسر السيد أبا زيد أميرها، ونهض الناصر من المغرب سنة إحدى وستمائة كما ذكرناه فاسترجعها من أيديهم وشردهم عن نواحيها. وخيم على المهدية يحاصرها، وقد أنزل ابن غانية ذخيرته وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس، فسرح الناصر إليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدين. وزحف إليهم بتاجراً من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بأيديهم، وأثخن فيهم بالقتل والسبي، واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم، ورجع إلى الناصر بعسكره من حصار المهدية ظافراً ظاهراً. وعاين أهل المهدية يوم مقدمه بالغنائم والأسرى فبهتوا وسقط في أيديهم، وسألوا النزول على الأمان. وكمل فتح المهدية، ورجع الناصر إلى تونس فأقام بها حولاً إلى منتصف سنة ثلاث وستمائة. وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا إسحق ليتتبع المفسدين، ويمحو مواقع عيثهم فدوخ ما وراء طرابلس، وأثخن في بني دمر ومطماطة ونفوسة، وشارف أرض سرت وبرقة، وانتهى إلى سويقة ابن مذكور. وفر ابن غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره. وانكفأ السيد راجعاً إلى تونس. واعتزم الناصر على الرحلة إلى المغرب وقد أفاء على أفريقية ظل الأمر، وضرب عليهم

سرادق الحماية. وبدا له أن ابن غانية سيخالفه إليها، وأن مراكش بعيد عن الصريخ، وأنه لا بد من رجل يسد فيها مسدّ الخلافة ويقيم بها سوق الملك، فوقف اختياره على أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، ولم يكن ليبعدوه لما كان عليه هو وأبوه في دولتهم من الجلالة، وأن أمر بني عبد المؤمن إنما تم بوفاق الشيخ أبي حفص ومظاهرته، وأنا أباه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد به وبإخوته. وكان يوليه صلاة الصبح إذا حضر شغل وأمثال ذلك.

وسرى الخبر بذلك إلى أبي محمد فامتنع، وشافهه الناصر به فاعتذر، فبعث إليه ابنه يوسف فأكرم موصله. وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات أفريقية في ثلاث سنين، وأن يختار عليهم من رجالات الموحدين، وأن لا يتعقب عليه في تولية ولا عزل، فقبل شرطه فنودي في الناس بولايته، ورفعت بين الموحدين رايته. وارتحل الناصر إلى المغرب، ورجع عنه الشيخ أبو محمد من باجة فقعد مقعد الإمارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة، وأنفذ أوامره، واستكتب أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل ورجع ابن غانية إلى نواحي طرابلس، فجمع أحزابه وأتباعه من العرب من سليم وهلال.

وكان فيهم محمد بن مسعود البلط في قومه من الذواودة، وعاودوا عيثهم، وخرج إليهم أبو محمد سنة أربع وستمائة في عساكر الموحدين. وتحيز إليه بنو عوف من سليم وهم: مرادس وعلاق فلقيهم بشبرو، وتواقعوا واحتربوا عامة يومهم، ونزل الصبر. ثم انفض عسكر ابن غانية آخر النهار، واتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم، وأفلت ابن غانية جريحاً إلى أقصى مفره. ورجع أبو محمد إلى تونس بالظفر والغنيمة. وخاطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فخاطبه بالشكر والعذر بمهمات المغرب عن إدالته، وأنه يستأنف النظر في ذلك. وبعث إليه بالمال والخيل والكساء للإنفاق والعطاء. كان مبلغها مايتا ألف دينار إثنتان وألف وثمان مائة كسوة، وثلثمائة سيف، وماية فرس، غير ما كان أنفذ إليه من سبتة وبجاية، ووعده

بالزيادة. وكان تاريخ الكتب سنة خمس وستمائة فاستمر أبو محمد على شأنه وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره إن شاء الله.

وقيعة تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيها واستنقاذ غنائمها:

كان يحيى بن غانية لما أفلت من وقيعة شبرو بدا له ليقصدن بلاد زناتة بنواحي تلمسان، وقارن ذلك وصول السيد أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن والياً عليها من مراكش، وخروجه إلى بلاد زناتة لتمهيد أنحائهم وجباية مغارمهم. وكتب إليه الشيخ أبو محمد نذيراً بشأنه، وأن لا يتعرض له وأنه في أتباعه فأبى من ذلك، وارتحل إلى تاهرت وصحبه بها ابن غانية فانفض معسكره. وفرت زناتة في حصونها، وقتل السيد أبو عمران. واستبيحت تاهرت فكان آخر العهد بعمرانها، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي، وانقلبوا إلى أفريقية فاعترضهم الشيخ أبو محمد بموضع فأوقع بهم واستنقذ الأسرى من أيديهم، واكتسح سائر مغانمهم، وقتل فيها كثير من الملثمين. ولحق فلهم بناحية طرابلس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

واقعة نفوسة ومهلك العرب والملثمين بها:

كان ابن غانية بعد واقعة شبرو واستفتاح أبي محمد تاهرت من يده خلص إلى جهات طرابلس، وتلاحق به فلّ الملثمين وأوليائه من العرب. وكان المجلي معه في مواقف الدواودة من رياح، وكبيرهم محمد بن مسعود فتدامروا واعتزموا على معاودة الحرب، وتعاقدوا الثبات والصبر وانطلقوا يستألفون الأعراب من كل ناحية،